٣٦ ــ إنصاف

لسادة اليوم وأعوانهم عناية بالألفاظ أشد جدا من عنايتهم بالمعانى ، وتهالك على الظواهر أشد من السعى إلى الحقائق ، ورغبة فى الإعلان ونشر الدعوة أشد جدا من أن يكون هذا الإعلان أو هذه الدعوة ملائمين لواقع الأمر وحقائق الأشياء .

وهذا الاستعداد الغريب يدعوهم إلى أن يخدعوا أنفسهم ويخدعوا الناس أيضا عما يحيط بهم وبنا من الظروف ، وعما يتعرضون له ويعرضون بلادهم له من أخطار قد تكون أبعد مدى وأقبح أثرا مما يظنون أو يقدرون . ولعل أوضح دليل على هذه الظاهرة فى نفوس سادة اليوم وأعوانهم قصة التعليم الإلزامى هذه التى يبتهج بها فريق فيسرف فى الابتهاج ، ويشفق منها فريق فيشتد فى الإشفاق . ولا يقدر أحد أنها أجل خطرا ، وأبعد فى حياتنا أثرا من أن ينظر إليها هذا النظر السريع ، ومن أن تتخذ وسيلة من وسائل الدعاية السياسية للوزارة أو لغير الوزارة .

ففرض التعليم الإلزامى فى مصر أمنية قومية ، لا يتردد فيها مصرى ، ولا يستطيع مصرى أن يقصر فى تحقيقها دون أن يخالف إرادة الشعب ، ودون أن يسىء إلى البلاد ، ودون أن يظهر بمظهر الذين يحرصون على أن لا تسرع مصر نحو الرقى ، وتخلص مصر من وصمة الجهل التى تعاب بها الأمم الحية ، والتى تحول بينها وبين حقها الطبيعى فى الرقى الصحيح . ولكن فرض التعليم الإلزامى ليس من المسائل اليسيرة الهينة التى يقضى فيها الوزير أو البرلمان بعد دراسة مهما تطل فهى قصيرة ، ومهما يشتد فيها التحقيق والتدقيق فهى سطحية قليلة الحظ من التثبت والاتقان .

ويكفى أن نلاحظ أن مجلس النواب لم ينفق فى درس هذه المسألة أسبوعا . وأين يقع الأسبوع من دراسة مسألة كهذه ستغير حياة مصر تغييرا لا حد له ، وستعرض حياة مصر لأخطار شديدة جدا إذا لم نحطها من ضروب العناية والتثبت وتقدير الظروف والعواقب بما ينبغى .

---

(١) الكوكب فى ٦ ــ ٦ ــ ١٩٣٣ .

وأريد الآن أن أقف عند وجه واحد من وجوه الخطر فى هذه المسألة ، وهو وجه الصلة بين رجال التعليم الإلزامى وبين حياتنا العامة ، لا من الوجهة السياسية وحدها ، بل من الوجهة الاجتماعية أيضا . فقد كان(١) النواب الذين عرضوا لرجال التعليم الإلزامى خفافا حقا حين عرضوا لهم وتحدثوا عنهم ، وقدروا مكانهم من الحياة المصرية . ظنوا أنهم جماعة من الموظفين ، ومن صغار الموظفين ، ومن أصغر الموظفين فأرسلوا القول فيهم إرسالا ، وأسرفوا فى هذا القول ، ولم يحاسبوا أنفسهم على صحة ما قالوا . ظنوا أن الكلام فى التعليم الأوّلى كالكلام فى انخفاض أثمان البصل أو أثمان القطن أو فى أى مظهر من مظاهر الأزمات المؤقتة التى لا بد من علاجها . ظنوا أن الكلام فى رجال التعليم الأوّلى كالكلام فى غيرهم من الموظفين الذين يراد أحيانا أن تنقص مرتباتهم ، ويراد أحيانا أن تزاد مرتباتهم ، وتضطرب الدولة فى أمورهم بالزيادة والنقص حتى تعجز عن أن تضع لهم سياسة واضحة مضبوطة ، فتضطر إلى التشديد ، ثم إلى التخفيف ، ثم إلى التشديد مرة أخرى ثم إلى الاستثناء ، ثم إلى التوسع فى هذا الاستثناء . وينشأ عن اضطراب الدولة فى سياستها مع الموظفين أنفسهم ، فإذا هم يشكون ويتنافسون ، ويمكر بعضهم ببعض ، ويكيد بعضهم لبعض ، ونشكو نحن من فساد الحال بين الدولة والموظفين أنفسهم ، ونشفق من تأثير هذا الفساد فى مرافقنا العامة ، ولكن أمر رجال التعليم الأوّلى أعظم خطرا من أمر الموظفين عامة ، لأن أمر هؤلاء الموظفين لا يعدو أن يكون موقوتا ، ولا يعدو أن يكون محدودا فى المصالح والوزارات التى يشتد فيها الاضطراب ويكون فيها الاستثناء .

أما رجال التعليم الإلزامى فأمرهم لا يكاد يحد فى الزمان ولا فى المكان . هم منتشرون فى أقطار مصر كلها وسيزداد عددهم ازديادا مطردا . وأثرهم فى

---

(١) على أثر نشر هذه المقالة تلقى طه حسين برقيات شكر من رجال التعليم الإلزامى من جميع الجهات ، فمن ذلك : [كان لكلمتكم المنشورة بكوكب الشرق أعظم أثر فى نفوس رجال التعليم الإلزامى بالقطر المصرى ، فأتقدم إليكم بالنيابة عنهم حاملا لواء الشكر رافعا علم الثناء والإخلاص ـ رئيس الاتحاد العام لنقابات التعليم الإلزامى بالقطر المصرى] .

حياتنا لا حد له . وهو شديد الاتصال بما يملأ نفوسهم من سخط أو رضى ، وما يملأ قلوبهم من اطمئنان أو اضطراب . فالمعلم الذى يلقى درسه وهو راض أو ساخط يترك فى نفس تلميذه الصبى أثرا ملائما لرضاه أو سخطه . وكذلك تستطيع أن تقيس مستقبل جيل من الأجيال بالحياة النفسية التى يحياها هؤلاء الناس الذين يكوِّنون نفوس الأطفال وعقولهم ، وينشئون قلوب الأطفال وعواطفهم . فإذا كان هؤلاء المعلمون يحيون حياة راضية أو كالراضية ، لا يشكون ولا يمتعضون ، ولا يتكلفون الحيل ليعيشوا ، ولا يترددون بين الفضيلة وبين الحياة ، فثق بأنهم سيهيئون جيلا راضيا مبتسما مستعدا للقاء الحياة فى شجاعة ونشاط وأمل . وإذا كان هؤلاء المعلمون يحيون حياة سيئة ، فيها بؤس وحرمان ، وفيها هم وتنغيص ، وفيها ضيق باليوم ، ويأس من غد ، فثق بأن الجيل الذى ينشئونه سيكون جيلا حزينا ، مظلم النفس شديد التأثر ما يدعو إلى السخط ، قليل الانبساط لما يدعو إلى الرضى ، شديد الإسراع إلى اليأس ، ضعيف المقاومة للحوادث والخطوب .

فأنت ترى أن هذه الطبقة التى أرادها جماعة من النواب منذ أيام ، والتى لا تكاد الحكومة تعنى بها إلا من حيث إنها أداة لمظهر من مظاهر الدعاية ، هى نشر التعليم فى غير تقدير لهذا التعليم ، خليقة أن يعنى بها الوزراء والنواب والشيوخ وكل من يفكر تفكيرا صادقا فى حياة هذه البلاد ومستقبلها . ولست أقول إنهم خليقون بهذه العناية لأنهم مصريون فيجب أن يأخذوا نصيبهم من الحياة المصرية خيرها وشرها كغيرهم من المصريين . ولست أقول إنهم خليقون بالعناية لأنهم ناس كغيرهم من الناس ، عليهم واجبات يجب أن ينهضوا بها ، ولهم حقوق يجب أن يظفروا بها ، ولهم آمال يجب أن تيسر لهم سبلها . لست أقول هذا الآن ، ولو قلته لما تجاوزت القصد والإنصاف ، وإنما أريد أن أقول إن العناية بهؤلاء الناس عناية بالأجيال التى ينشئونها فهى عناية بالشعب المصرى كله ، وهى عناية بالمستقبل القريب والبعيد لهذا الشعب ، فمن أراد أن يكون مصر أجيال حرة حقا مستعدة حقا للرقى ، طامحة حقا إلى الحياة السعيدة التى يملؤها الأمل والنشاط فليعن بهؤلاء الناس الذين يكونون هذه الأجيال ، والذين

يتلقون الأطفال من آبائهم وأمهاتهم فيصوغونهم هذه الصيغة الوطنية القومية ، ويجدون ما استطاعوا فى أن يكونوهم تكوينا يلائم المثل العليا التى نصورها نحن فى قانون التعليم الإلزامى .

هناك ناحية أخرى أيسر من هذه الناحية فهما ، وأقرب من هذه الناحية متناولا ، وأدنى إلى عقول الذين يشتغلون بالسياسة ويصرفون أمور الحكم ، لأنها تمس منافعهم العاجلة ، وتتصل بالعلاقة بينهم وبين الشعب ، وهى أن طبقة المعلمين هذه هى أشد الطبقات اتصالا بالشعب ، وانتشارا بين أفراده ، وأقرب الطبقات إلى قلوب الناس ، وأشد الطبقات تأثيرا فى آمالهم وأعمالهم وفى ميولهم وأهوائهم . فليس من مصلحة حكومة ما أن يضيق هؤلاء الناس بالحياة أو يعبسوا لها ، أو يتبرموا بها ، لأنهم حينئذ خليقون أن يبثوا ضيقهم هذا راضين أو كارهين ، مريدين أو غير مريدين من حولهم ، وخليقون أن يكونوا أداة لنشر السخط والامتعاض فى أقطار البلاد ، وفى طبقات الناس على اختلافها .

وقد عرفت لهم البلاد الأوربية هذه المنزلة كما عرفت لهم المنزلة التى أشرت إليها آنفا فحاطتهم من العناية والرعاية بما يعصمهم من الضيق والسخط ، وبما يجعلهم أداة للرقى المنظم الهادىء ، لا أداة للاضطراب وزعزعة النظام السياسى والاجتماعى فإذا كانت الحكومات المصرية على اختلافها واختلاف الأحزاب التى تكونها وتؤيدها ؛ حريصة حقا على أن تحتفظ لمصر بنظامها الاجتماعى المعتدل ، وتعصمها من التورط فى نظام الطبقات ، وما يتبعه من النتائج الخطرة ، فأول واجب عليها هو أن تضمن لهؤلاء الناس حياة معتدلة مطمئنة تحول بينهم وبين السخط الذى يدعو إلى التماس السعادة العاجلة أو الآجلة من طرق يكرهها النظام .

وأول واجب على هذه الحكومات مهما تختلف هو أن تضع هؤلاء الناس بمعزل عن التفكير فى السياسة والتعصب للأحزاب ، وتجعلهم أمناء على تكوين الأطفال من حيث هم أبناء مصر ، فيجب أن يكونوا لمصر ، لا لحزب دون حزب ، ولا لسلطة دون سلطة . وتخطىء الحكومات أشد الخطأ وأشنعه إن ظنت أنها تستطيع أن تمنع هؤلاء المعلمين من الاشتغال بالسياسة بحكم

السلطان والقانون . فهى لن تستطيع أن تمنعهم بالسلطان والقانون إلا فى ظاهر الأمر . ولن تستطيع أن تسيطر على ضمائرهم وقلوبهم ، ولن تستطيع أن تحرمهم حق الانتخاب وحق الدعوة الطبيعية إلى ما يرون فى الانتخاب . فالمنفعة الحقيقية إذن إنما هى فى أن تكون حياة هؤلاء الناس بحيث لا تسخطهم ولا تحفظ قلوبهم وتضطرهم إلى أن يعرضوا أنفسهم على الأحزاب أو يتهالكوا عليها ، بل تمكنهم من أن يستمتعوا بحقوقهم السياسية فى هدوء واعتدال وتقدير صحيح للمصلحة العامة فى غير تأثر بدوافع المصالح الخاصة .

هذا كلام نقوله مخلصين ، لأن مصلحة مصر تريده ، ولأننا مقتنعون بأن التعليم مهما تكن درجاته يجب أن يكون فوق الأحزاب وخصوماتها السياسية .

فخليق بالذين يريدون أن يحققوا أمنية مصر فى فرض التعليم الإلزامى أن يفكروا فى هذا ويطيلوا التفكير ، وأن يقدروا أن هذا التعليم لا سبيل إليه بدون المعلمين وأن صلاحه وفساده رهينان بما قد تكون عليه حال المعلمين من صلاح أو فساد .

لذلك كله أنكرنا وما زلنا ننكر خفة النواب الذين عرضوا لهؤلاء الناس فى غير عدل ولا إنصاف ، وقالوا فيهم غير الحق ، وأصغروا من شأنهم وهو كبير ، وإنى لأرجو أن يكون حظ هؤلاء المعلمين عند الشيوخ خيرا من حظهم عند النواب . وأنا واثق كل الثقة على كل حال بأن حظهم عند مصر يوم ترد إليها حريتها وتفوض إليها أمورها ؛ سيكون هو الحظ الذى يحبون ويرضون ، لأن مصر تعرف حقها على نفسها ، وتعلم أن مكان المعلم الأولى من الطفل إنما هو مكان الأب الثانى ، ومصر الحرة شديدة الحرص على البر بالآباء .